حول «حوار من نوع آخر...» لصبري جريس

من أين يجيء النقد ؟ وأين يذهب ؟

المقالة التي افتتح بها الاستاذ صبري جريس عدد شؤون فلسطينية ، الرقم ١٧٠ ـ ١٧١، أثارت لدي أكثر من شجن، وقلّبت اكثر من فكرة. فمقالة تحمل عنوان «حوار من نوع آخر حول ' الحوار ' و ' الوحدة الوطنية ' » وتصدر في دورية فلسطينية متخصصة هي، بالتأكيد، فرصة لتأمل واقع حال نعيشه، ألف بائه انتفاء الحوار بين الاطراف (الحوار بما هو عكس التشاتم قطعاً)، حتى اذا حدث هذا الحوار جاء، في أغلب الاحيان، محكوماً بشرطين، لا ثالث لهما:

○ حاجة الاطراف للحوار لفض «اشتباكات» سياسية وتنظيمية تجد نفسها مضطرة، لأسباب مختلفة، الى فضها. والحوار، في هذه الحالة، لا يكون بحثاً في الفكر والجدل عن نقاط التفاهم استراتيجياً، بقدر ما هو خضوع تكتيكي يريد من هذا الاتفاق ردم هوّة، أو التغلب على مأزق مرحلي. وعلى هذا، فالحوار الرسمي ينعقد وينفض في مواسم خاصة، دون ان يتمكن المتحاورون من مراكمة فوائد وثمرات، بل وخبرات واستعدادات ترقى بهذه الموسمية الى مستوى العادة الدائمة التي تمكن الجميع من الاحتكام الى العقل وجدله وتضمن ابتعاد هذا الطرف أو ذاك عن ممارسة هوايته في «الحرد» والابتعاد كلما عنّ له ان يفعل ذلك.

على ان ما سبق ذكره من مواصفات للحوار والمتحاورين كان يمكن ان تهون لو اقتصرت على الرسميين فقط. غير اننا، بقليل من الجهد والتأمل، يمكننا ان نلحظ ان هذه الحالة تسحب نفسها على المثقفين كذلك، فيبدو واقعهم، هم ايضاً، نسخة كربونية عن واقع رسمييهم، الامر الذي بدا معه ان هؤلاء المثقفين لا يطمحون الى دور خاص بهم بقدر ما يتطلعون للاتكاء على ثقافتهم من اجل تسويق انفسهم قادة مستقبليين على الطريق المعروفة ذاتها.

ولكي تستقم الامور، فان تنشيط الحوار ومحاولة تحويله الى واقع يومي تصبح ضرورة لا غنى عنها، ولا مفرّ منها، لخلق حياة فكرية حقيقية وليس مجرد ديكورات ثقافية نراها مرة لتختفي مرات.

○ الشرط الثاني، الذي لا يزال يحكم حوارنا الفلسطيني هو اختلاف الفصائل، او الأدق تباعدها. فالعادة جرت، ولا تزال، ان تقوم مجلة هذا الفصيل بانتقاد ذاك الفصيل اذا وقعت بينهما الواقعة، مما يدفع المهاجَم الى كيل الصاع صاعين وتدبيج رد لا يقل قسوة وشراسة عن هجوم الفصيل الاول، حتى اذا ما التقت القيادات وأجرت تفاهماً حول خلافاتها، هدأت ثائرة الثائرين ووضعت الخلافات السابقة في البرّاد، لا تموت تماماً، ولكن تتجمد، لأن المرحلة لم تعد مرحلة «مهاترات» لا يستفيد منها أحد، الا الاعداء. هكذا، تدار الحوارات ولا ينتبه أحد، عملياً، الى ان هذا النقد يجب ان يكون من سمات حياتنا اليومية.

فالمفروض، مثلاً، ان تناقش مجلة الجبهة الشعبية برنامج الجبهة الديمقراطية، والعكس صحيح، لا ان تنتظر وقوع الخلاف، بل واحتدامه، حتى تبادر هذه المجلة، او تلك، الى كتابة مقالة لا تناقش، في الغالب، البرنامج بقدر ما تقوم بهجاء الخط السياسي الراهن للفصيل المختلف معه. وفي هذا الحال، فان أعذاراً كثيرة، واهية واخلاقية وشعبوية، تبرز على الألسنة: «هذا يفجر الخلافات» و «هذا يخلق حساسيات»، وكأن الاختلاف نقيصة على الرغم من الحاح الجميع على تبرير وجوده التنظيمي المستقل بضرورة التعددية، وبشكل يبدو معه الاحجام عن النقد اليومي الصارم، الذي «لا يرحم»، مسألة اكثر من ضرورية لمعالجة الاختلافات الطبيعية الوقوع